



أمانة الخزينة "جوري قلغا"

مع بالغ الأسف فنحنُ لا نملك معلوماتٍ وافيةً عن حياة "جوري قلغا"^(١١٤)، لكنَّ الشائع أنَّها من أصل شركسيّ^(١١٥)، التحقت بخدمة القصر جاريةً، وتولَّت وظيفة المسؤولية عن خزينة حريم السلطان في الثامن العشرين من يوليو/تموز عام (١٨٠٨م)، وعُرفت بـ"جوري أوسطى"، أي: رئيسة الخدم؛ إذ كان يُطلق على القائمين بتلك الوظيفة "خزينة دار أوسطى"^(١١٦).

ويبدو أنَّ وفاة "جوري قلغا" كانت قبيل التاريخ المذكور بالسطر الأخير من هذه العبارة: "اشرب ماء زمزم على روح المرحومة أوسطى (١٢٣٥هـ/١٨١٩-١٨٢٠م)" المكتوبة على حوض السبيل بمدرسة أطفال سيدها السلطان "محمود الثاني" مطلع شارع "ديوان يولي بـ" حَيَّ السلطان أحمد" لتكون صدقةً على روحها.

(١١٤) قلغا: مديرة شؤون الجوّاري في قصر السلطان.

(١١٥) الشركس: هم مجموعة تشمل سكان شمال القوقاز من "أديغة" و"شيشان" و"آفار" و"الزجين" وغيرهم، كنتيجة للحروب التوسعية التي شنتها الإمبراطورية الروسية في المنطقة اضطر الكثير من الشركس إلى الهجرة إلى الأراضي العثمانية أو الروسية.

(١١٦) خزينة دار أوسطى: المسؤول عن خزينة حريم السلطان.

دُفِنَتْ "جوري قلفا" بحَيِّ الفاتح في ضريح السلطنة "نَقْشِي دِلْ"
-والدة السلطان "محمود الثاني"- على بُعد خمسين إلى ستين متراً من
ضريح السلطان "محمد الثاني".

حركة التمرد الكبيرة

بدأت حركة النظام الجديد -التي أولاها السلطان "سليم الثالث"
اهتماماً كبيراً، واعتبرها بمثابة إعادة هيكلة مؤسسات الدولة، والتي
ازدهرت بعد عام (١٧٩٢م)،- بدأت في التزعزع بسبب التمردات وردود
الفعل المتزايدة بعد عام (١٨٠٥م).

بحلول مايو/أيار عام (١٨٠٧م)، اندلعت حركة تمرد هائل بتحريض
وترتيب من قائم مقام الصدارة (١١٧) "كوسه موسى باشا" وشيخ الإسلام
"عطاء الله أفندي"، وفي السابع والعشرين من مايو/أيار عام (١٨٠٧م)
تجمّع خمسمائة متمرّد عند "بيوك دره" في "ساريير" (Sariyer)، يتزعمهم
"قَابُقْجِي مصطفى شاووش" أحد المتمرّدين لمعسكر الإنكشاريّة، وساروا
بمحاذة الساحل حتى وصلوا إلى "طوب خانه"، ثمّ عبروا إلى إسطنبول
بالقوارب، ووصلوا إلى حي "أَتِيْمَزْ" (Etyemez) وبها ثكنات الإنكشاريّة،
وتجاوز الحشد عشرة آلاف لما انضمّ إليه معسكرا الإنكشاريّة و"جبجي"
ورجال المدفعية، وملؤوا ميدانين بحَيِّ "السلطان أحمد"، وخرج الأمر
عن نطاق السيطرة.

في التاسع والعشرين من مايو/أيار عام (١٨٠٧م)، خلع السلطان
"سليم الثالث" عن العرش، وتولّى مكانه السلطان "مصطفى الرابع" -ابن

(١١٧) قائم مقام الصدارة: هو لقب من ينوب عن الصدر الأعظم -رئيس الوزراء- في أعماله.

عمّ السلطان سليم- الذي دعم الانقلاب من بداية ظهوره، ولعب دوراً مؤثراً في المؤامرات المَحْكُوة على السلطان والنظام الجديد، وأجبر السلطان السابق على الإقامة الجبرية في غرفةٍ بقصر "طوب قابي".

بعد عام واحدٍ من الواقعة تحرّك "عَلَمْدَار مصطفى باشا" القائد العسكريّ من أجل إعادة السلطان "سليم الثالث" إلى العرش، وتحرّك من مدينة "روسه"^(١١٨) بغرض إحياء النظام الجديد مرّةً أخرى، وسار إلى إسطنبول بالقوات التي تخضّع لسيطرته، حتى وصل إلى أبواب قصر "طوب قابي".

حاكمٌ منحوسٌ

في تلك الأثناء أوعز المقربون للسلطان "مصطفى" وأقنعه أن بقاءه على العرش العثمانيّ مرهونٌ بموت السلطان "سليم" والأمير "محمود"؛ فأصدر السلطان أمراً مباشراً بقتلهما، ويبدو أنّ غرض السلطان من هذا الأمر هو ضمان استحالة خلعه، وبناءً على ذلك اقتحم الجنودُ بشارسة غرفة السلطان "سليم"، ووقع ذلك الحاكم المنحوس على إثرها قتيلاً، ووضعت جثته أمام غرفة العرض^(١١٩).

في ذلك الحين كان "عَلَمْدَار مصطفى" على وشك تحطيم باب السعادة^(١٢٠)، في حين كان المحيطون بالسلطان "مصطفى" يبحثون

(١١٨) روسه: هي خامس أكبر مدينة في بلغاريا. تقع في الشمال مقابل الحدود الرومانية على نهر الدانوب وتبعد ما يقارب ثلاثمائة كم عن العاصمة "صوفيا".

(١١٩) غرفة العرض: القاعة التي كان يستقبل فيها السلطان الصدر الأعظم وأركان الديوان الهمايوني أيام تقديم المعروضات. سهيل صابان: ص ١٥٨.

(١٢٠) باب السعادة: يطلق عليه باب الأغوات البيض، ويتكون من بابين متداخلين، مقابل رواق يستند على عند رخامية حيث يجلس فيه السلطان في مراسم الأعياد، سهيل صابان: ص ٤٨، ٤٩.

عن الأمير "محمود"؛ فلقد كان قصر "طوب قابي" في الثامن والعشرين من يوليو/تموز عام (١٨٠٨م) يشهد واحدة من أفجع أحداثه التاريخية.

دُمُ السلطان سليم

تهافتَ المتمرّدون -البالغُ عددهم تسعة عشر ومعهم اثنا عشر "بوستانجيًا"^(١٢١) امتلأت عيونهم بالشرّ- على باب "كوش خانة" بحريم القصر شاهرين السيوف بعد أن أبعدوا المعلّم "لالا طيار آغا" عن طريقهم، ثم استرد المعلّم لالا وعيّه، فأخذ معه اثنين من المساعدين وتعقّب القتلة، لكن لكونهم من "أندرون" حفظوا حرمة "الحرفليك" ولم يتجاسروا على دخول الحرم مثل أولئك القتلة الذين لا يبالون بأية حرمة، وإنما استغاثوا بالخدم الزنوج حراس الحريم: عنبر وقاسم وحافظ عيسى كان الزوج الثلاثة رجالاً ضخماً إلى حدّ ما، عمالقة، أقوياء، فأشهبوا أسياهم بسرعة، وهرعوا لإنقاذ السلطان "سليم" والأمير "محمود"، إلا أنّهم تأخروا عن السلطان "سليم".

توجّهوا هذه المرّة إلى غرفة الأمير "محمود"، لكنّ السلطان لم يكن هناك، فالأمير الشابّ ذو الثلاثة وعشرين عاماً تم تهريبه بواسطة جوري قلفا إلى غرفة بالدور العلويّ من "آلتن يول" -الغرفة الخاصّة بجوري قلفا- ولما وصل الزنوج إلى السلم الحجريّ المؤدّي إلى الدور العلويّ، وصل القتلة أيضاً؛ فصاح "أبّه سليم" -أحد رجال السلطان مصطفى-:

- أيّها الرجال، أفسحوا الطريق لثلاث يصيبكم الضرر، فقد صدرت

فتوى بإعدام الأمير.

(١٢١) "بوستانجي (Bostanci)": صنف من الإنكشارية مكلف بوظائف الأمن والحراسة في معسكر الإنكشارية.

فصاح "قاسم آغا" قائلاً:

- لن تستطيعوا المرور.

وزأر الزنجي "نذير" في "البوستانجية" قائلاً:

- لم أنتم واقفون؟ الأمير بالدور العلوي! لا تتباطؤا في عملكم؟ هيا بسرعة اقضوا عليهم!

تضاعفت وحشية الجناة بعد أن تلطخت أيديهم بدماء السلطان سليم، وبينما كانوا ينقضون بهمجية على الخدم المتصدّين لهم، صعد الزوج السلم وهم يتخطونه بسرعة فائقة، وعلى حين اختار "قاسم آغا" مكاناً مناسباً له عند الفسحة العلوية للسلم، أخذ عنبر وحافظ عيسى مكانهما عند باب الغرفة، لكن إلى متى تستطيع ثلاثة سيوف أن تصمد أمام تسعة؟ استطاع "قاسم آغا" أن يصمد أمام القتلة الغوغائيين خمس دقائق فقط، لكن في النهاية أصبح أعلى السلم خالياً بعد أن أصيب "قاسم آغا" بحربة أطلقها أحد البوستانجية^(١٢٢).

معركة "جوري قلغا" ذات الرماد

في لحظة اندثر فيها كلّ شيء ظهرت "جوري قلغا" وغيّرت مسار الأحداث، تلك الفتاة الشريفة المديدة، القويّة الشديدة، قفزت كمنيرة حافية، وقد استشرفت^(١٢٣)، كانت تحمل بيدها وعاء كبير مملوء بالرماد، فصرخت في "عيسى" و"عنبر" قائلة:

(١٢٢) رشاد كرم أفجو، موسوعة إسطنبول، المجلد السابع، ص ٢٣-٣٥.

(١٢٣) أدخلت أطراف ثوبها في حزام تشد به خصرها.

- هَيَّا، لَا تَتَوَقَّفُوا، هَرِّبُوا الْأَمِيرَ.

ثم أشارت إلى فتحة المدخنة قائلة:

-إلى السقف، هيا بسرعة إلى السقف.

فصعدت إلى أعلى السلم مسرعةً، وبدأت تنثر الرماد الساخن على وجوه القتلة الذين يصعدون من السلم على وجه السرعة، وأثناء ذلك الصخب توقّف الجناءُ عنوةً من كثرة الرماد الساخن الذي نثرته جوري قلفا عليهم حتى أعمى عيونهم، وهذا ما أكسبهم بعضاً من الوقت لكي يهربوا من أيدي القتلة، وكان الرجال الزوج حينئذ يحملون الأمير محموداً على أكتافهم، ويحاولون إخراجه عبر المدخنة، أما جوري قلفا، فقد نفدت قواها كما نفدت رمادها أيضاً، ولما حاولت التراجع خطوةً إلى الوراء، تدرجت على الأرض إثر ركلةٍ في بطنها، وفقدت الوعي.

وصل إلى صحن السلم أحد الجلادين الذي كان يُدعى "أبا سليم"، وكان قنّاصاً ماهراً في الرمي بالسكين، فأطلق الخنجر بسرعة صوب الأمير محمود وهو على وشك الصعود إلى السقف، فانغرز في ذراعه، إلا أنّ الأمير نجح في بلوغ السطح.

نجاة الأمير

كانت الصرخات في القصر تزداد تدريجياً، حيث داهم "عَلَمْدَار مصطفى باشا" باب السعادة، ودخل القصر وإذا به أمام جثمان السلطان "سليم" خارج غرفة العرض، فانكبّ عليه، وبدأ يصرخ:

- واهّا يا سيدي، بعد أن شددتُ الرحال، وقطعتُ هذه المسافة من أجل إجلاسك على العرش، إذا بعينيّ تراك على تلك الحالة، لأنتقمّن ولأذبحنّ أولئك الخونة "أندرون"!

وعلى إثر كلماته هذه قاطعه "رامز أفندي" ليبّته فقال:

- ليس هذا وقت البكاء على ما كان، ولا الأخذ بثأر من مات، الوقت ضيق، ودقيق جدًّا لإنقاذ الدولة، نرجو ألا يلحق الضرر بمولانا السلطان محمود!

فأمر "علّمّدار" من حوله من الجنود:

- ابحثوا عن مولانا السلطان "محمود"، اصعدوا للأعلى، حطّموا الأبواب^(١٢٤).

ولما تزايدتِ الجلّبة، تشتّت قتلة السلطان سليم في أنحاء القصر جميعًا طلبًا للنجاة، وفي ظلّ ذلك الهرج والمرج نجا الأمير "محمود" و"جوري قلغا"...، ثمّ أنزل الأمير الشاب من على السطح، يتقدمه "حافظ أحمد أفندي"، في حماية المعلم "لالا طيّار" و"محمد آغا" في المؤخّرة، وحينما اقتربوا من "علّمّدار مصطفى باشا"، سأل الأخير بلهجة روميّة:

- من هذا؟

فأجاب "حافظ أفندي":

- مولانا السلطان "محمود"، حان الدور لاستخلافه، أنا بايعته، وبقي لكم القيام بما فيه الخير والمصلحة.

فاستجمع الباشا نفسه، وقال وهو يقبل طرف ثوب السلطان:

- سيدي، لقد جئتُ إلى هنا لأصطحبَ عمَّك إلى العرش إلا أنني فوجئتُ بجثمانه وضائق عليَّ الأرض بما رحبت لأن عيني شاهدت هذا المنظر المؤلم ولا تقرّ عيني إلا اصطحاب سيادتكَ إلى العرش.

بعد تلك الكلمات تمّ تنصيبُ السلطان "محمود"، المصاب بجروح خفيفةٍ أعلى حاجبه لارتطام جبينه بالحائط وفي ذراعه بالخنجر أثناء صعوده إلى السطح من النافذة العلوية بغرفة "جوري قلغا".

وفاة "جوري قلغا":

لم يُقصّر السلطان بعد أن تولّى الحكم في تعظيم تلك المرأة الباسلة التي ساعدته وألقت بنفسها إلى التهلكة، فمنحها المكافآت القيّمة اللائقة بعظمة بطولتها، وعيّن لها أمينة لخزانة الحرم السلطانيّ.

لم يكتفِ السلطان "محمود الثاني" بمنحها الوظيفة، بل أمر كذلك بإنشاء قصرٍ رائعٍ لها في حيّ "بُيُوكُ چَامَلِيچِه"، وخصّص لها ما حوله من الأراضي الشاسعة، علاوةً على ذلك فقد أمر بسحب ماء عين ينبع من الأرض نفسها إلى "أسكودار"، وأسماه "جوري قلغا سُويي" (١٢٥) وأمر بإنشاء هذا السبيل في منطقة "إيجاديه" داخل حيّ "أسكودار" للناس.

وعلى إثر وفاتها عام (١٨١٨-١٨١٩م)، أمر السلطان "محمود" بإقامة مدرسة أطفال، وسبيل ماء على روحها وفاءً وعرفاناً بجميلها.

تقع تلك المدرسة أمام جامع "فيروز آغا" أول شارع "ديوان يولي" بحي "السلطان أحمد"، وتحمل اسم "مدرسة جوري قلغا للأطفال"، وهذه المدرسة تُعدّ أكبر مدارس الأطفال بـ "إسطنبول" من حيث المساحة، وهي أثرٌ نادرٌ يتّسم بخصائص مختلفة عن غيره من الأبنية، ويحمل آثار تيارات الفنون الوافدة من الغرب من حيث عمارته وتصميمه ووجهته.

ولقد كتب "كجهجيزاده عزت مولا" آخر الخطاطين العظام على باب المدرسة الرئيس منقوشاً بخط الرخام قصيدةً خلد في آخر بيت من أبياتها تاريخ وفاة "جوري قلغا" حيث أشار إليه من خلال الأحرف الأبجدية بالطريقة العثمانية^(١٢٦).

خدمت مدرسة "جوري قلغا" أطفال الدولة نحو أربعين سنة، ثم حُوّلت عام (١٨٥٨م) إلى مدرسة فنون للفتيات، وبعد إعلان الجمهورية استُخدمت مخزناً لسجلات رئاسة الوزراء، أي: دار محفوظات رئاسة الوزراء، وبدءاً من العام الدراسي (١٩٤٥-١٩٤٦م) تحوّلت مرّة أخرى إلى مدرسة ابتدائية، وخلال الثمانينيات أُخْلِيت المدرسة مدّة، وبعد عام (١٩٨٥م) خُصِّصَت لجمعية الأدب التركي.



(١٢٦) ونص البيت الأخير من قصيدة "عزت" الذي يخلد فيه تاريخ وفاة "جوري" هو: "مكتبيله روجي جوري اوتانك شادان اوله" حيث تشير الأحرف المنقوطة فيه إلى تاريخ وفاتها.



قائدُ رابطُ الجأش لا يعرف معنى الخوف أو التردد...

رجل الحروب وفارس الميادين..

لقد امتاز بما لا يتوفّر لدى كثيرٍ من القادة؛ إنها سرعة اتّخاذ القرار الصائب، ففي خضمّ المعركة يُصدرُ القرار المناسب في الوقت المناسب..

قال عنه قيصر الروس «ألكسندر»:

”لا يحزننّك وقوعك في الأسر، فقد أديتَ ما عليك على الوجه الأكمل،
وإني لأعدّ نفسي محظوظًا؛ لكوني حاربت قائدًا شجاعًا هُما ما
ذا فطنةٍ مثلك“.

وقال عنه «جرانديك نيقولا» شقيق القيصر:

”أهنتك بدفاعك؛ فقد كتبتَ واحدةً من أعظم الملاحم التاريخية“.

إنه البطل «عثمان باشا»

